



صدرت الكتب الثلاثة مؤخراً عن منشورات المتوسط، وقد نقلها عن الإنكليزية الشاعر والمترجم الفلسطيني سامر أبو هواس. ننشر هنا فصلاً من «رحلات في حجرة الكتابة» خصّه المترجم للمجلة:

يجلس الشيخ على طرف السرير الضيق، واضعاً راحتي يديه فوق ركبتيه، مطرفاً الرأس يحملق بالأرض. لا فكرة لديه بأن ثمة كاميرا على السقف مصوّبة مباشرة نحوه. مصراع الكاميرا يغلق ويفتح بصمت مرة كلّ ثانية، منتجاً ثمانية وستين ألفاً وأربعمئة صورة مع كلّ دوران للأرض. وحتى لو عرف بأنه مراقب، لما شكّل ذلك أي فرق. فعقله سارح في مكان آخر، في مخيلته، بحثاً عن جواب عن السؤال المؤرق.

من هو؟ ما الذي يفعله هنا؟ متى وصل إلى هنا، وكم سيبقى؟ نأمل بأن الوقت سيخبرنا بذلك. أما في الوقت الراهن، فإن مهمتنا الوحيدة تنحصر في دراسة الصور بقدر ما أمكننا من التيقّظ، والامتناع عن استخلاص أية نتائج متعجلة.

أشياء عدة تتوزّع في أرجاء الغرفة، وفوق كلّ واحد منها شريط أبيض كتب عليه كلمة واحدة بأحرف منفصلة. على منضدة السرير، مثلاً، كتب "منضدة". وعلى المصباح "مصباح". وحتى على الجدار، وهو لا يعدّ "شيئاً" بكلّ معنى الكلمة، كتب على الشريط اللاصق كلمة "جدار". يرفع الشيخ رأسه لبرهة، يرى الجدار، ويرى الشريط الملتصق عليه، ويلفظ، همساً، كلمة "جدار". ما لا يستطيع معرفته في هذه المرحلة هو ما إذا كان يقرأ الكلمة على الشريط أو أنه يشير ببساطة إلى الجدار نفسه. ربما يكون قد نسي القراءة لكنّه ما زال يميّز الأشياء على حقيقتها ويستطيع معرفتها من أسمائها، أو على العكس، ربما فقد المقدرة على تمييز الأشياء على حقيقتها لكنه ما زال قادراً على القراءة.

يرتدي منامة قطنية مقلّمة بخطوط زرقاء وصفراء، وفي قدميه زوج من الأحفاف الجلدية السوداء. ليس بيناً بالنسبة إليه أين هو على وجه التعيين. صحيح أنه في الحجرة، ولكن في أي مبنى تقع هذه الغرفة؟ أهى في بيت؟ أم مشفى؟ أم في سجن؟ لا يستطيع تذكّر الوقت الذي مضى عليه ههنا أو طبيعة الظروف التي أدّت إلى وجوده في هذا المكان. ربما كان هنا منذ البداية؛ ربما يكون هذا المكان الذي يعيش فيه منذ ولادته. ما يعرفه جيداً أن قلبه طافح بإحساس قاتل بالذنب. وفي الوقت عينه لا يمكنه التخلّص من شعوره بأنه ضحية ظلم مرّوع.

في الغرفة نافذة واحدة، لكنّ الستارة مسدلة فوقها، ويقدر ما تسعفه الذاكرة فإنه لم ينظر بعد من هذه النافذة.



والأمر نفسه ينطبق على الباب ومقبضه البورسلانيّ الأبيض. أهو محبوس، أم أنه حرّ بالدخول والخروج كيفما يشاء؟ ما زال عليه استكشاف ذلك-إذ أن عقله، وكما هو مبين في الفقرة أعلاه، سارح في مكان آخر، في الماضي، بينما يطوف متنقلاً بين أطراف في رأسه، مكابداً للإجابة عن السؤال الذي يقصّ مضجعه.

الصور الفوتوغرافية لا تكذب، وفي الوقت نفسه لا تروي القصة الكاملة. فهي مجرد سجلّ عن مرور الزمن، الدليل البرّاني على ذلك. فعلى سبيل المثال يصعب تحديد سنّ الشيخ اعتماداً على الصور الفوتوغرافية بالأبيض والأسود والتي تلوها طبقة من الضباب. الحقيقة الوحيدة التي يمكن ذكرها بشيء من التيقن هي أنه ليس شاباً، غير أن كلمة "شيخ" هي تعبير فضفاض ويمكن استعمالها لوصف الشخص في أيّ عمر ما بين الستين والمئة. وبالتالي سنتخلى من الآن فصاعداً عن كنية "الشيخ" ونشير إلى الرجل في الحجرة باسم "السيد بلانك"، ولن نحتاج إلى اسم أول.

أخيراً ينهض السيد بلانك، يترّث برهة ليحافظ على توازنه، ثم يجرّ قدميه إلى المنضدة في الطرف المقابل من الحجرة. يشعر بالتعب وكأنه أفاق للتوّ من نوم قصير متقطع، وصوت انجرار خفيّ على الأرض الخشبية العارية، يذكره بصوت ورق السنفرة. بعيداً، خارج هذه الحجرة والمبنى الذي يضمّها، يسمع زعيق طير بعيد-ربما كان غراباً، ربما نورساً، لا يستطيع أن يعرف أيّهما على وجه اليقين.

يجلس السيد بلانك على الكرسي وراء المنضدة. يتبيّن له كرسيّ مريح للغاية، فهو مصنوع من الجلد البنيّ الناعم وله ذراعان عريضان يتسعان لمرفقيه وذراعيه، ناهيك عن آلية خفيّة من النواضب تتيح له أن يميل الكرسي إلى الأمام والخلف متى رغب في ذلك، وهو بالضبط ما يشرع بالقيام به لحظة استوائه جالساً على الكرسيّ. فهذا التّأرجح له أثر مسكّن في نفسه، وبينما يواصل السيد بلانك الاستمتاع بهذه الهزهزة السّائرة، يتذكّر الحصان الهزاز الذي كان يجلس عليه في غرفة نومه حين كان ما زال طفلاً، ثم يبدأ بعيش بعض الرحلات المتخيلة التي اعتاد القيام بها على صهوة ذلك الجواد، والذي كان اسمه "وايتي" والذي لم يكن، بحسب السيد بلانك صغيراً، شيئاً مصنوعاً من الخشب ومزوّقاً بالطلاء الأبيض، بل كائناً حيّاً، جواداً بكلّ معنى الكلمة.

بعد هذه النزهة الوجيزة إلى فتوّته المبكرة، يتصاعد الألم في حلق السيد بلانك مجدداً. يقول بصوت مسموع ملؤه السأم: عليّ ألا أسمح بحدوث ذلك. ثم يميل إلى الأمام لكي يتفحص أكדاس الورق والصور الفوتوغرافية المكمّومة



فوق بعضها على سطح المنضدة المصنوعة من خشب الماهاغوني. يحمل الصور أولاً، ثلاث دزينات من البورتريهات بالأبيض والأسود قياس ثمانية بعشرة إنشات، تمثل رجالاً ونسوة من مختلف الأعمار والأعراق. الصورة في الأعلى هي صورة شابة في مطلع العشرينات. شعرها الداكن قصّ قصيراً، وثمة نظرة حادة مضطربة في عينيها الشاحصتين نحو العدسة. تقف في الخارج في مدينة ما، ربما كانت مدينة إيطالية أو فرنسية، لأنها تقف أمام كنيسة من القرون الوسطى، وتضع على رأسها وشاحاً وترتدي معطفاً، فلن نجانب الصواب إذا افترضنا أن الصور التقطت في الشتاء. يحملق السيد بلانك بعينيّ الشابة محاولاً تذكّر من تكون. وبعد زهاء عشرين ثانية، يسمع نفسه هامساً كلمة واحدة: أنا. إحساس بالحبّ الطاغى يحتاج كيانه. ويتساءل ما إذا كانت أنا زوجته في ماضي الأيام، أو لعلها تكون ابنته. بعد هنيهة واحدة من هذه الأفكار، يجتاحه شعور عارم بالذنب، ويدرك أن أنا ميتة. بل أسوأ من ذلك، يراوده حدسٌ بأنه المسؤول عن موتها. وربما- يحدث نفسه- يكون هو من قتلها.

يننّ السيد بلانك ألماً. النظر إلى الصور الفوتوغرافية يفوق احتمالها، فيدفعها جانباً ويحوّل اهتمامه نحو الورق. ثمة أربع كدسات بالمجمل، كل منها بارتفاع نحو ستة إنشات. وبلا سبب محدّد بالنسبة إليه، يمدّ يده إلى أعلى الكدسة الأبعد نحو اليسار. الكلمات المكتوبة بخط اليد، وبحروف منفصلة شبيهة بتلك التي على قصاصات الأشرطة البيض، على النحو التالي:

بالنظر إليها من الفضاء البعيد، لا تبدو الأرض أكثر من نقطة غبار. تذكّر هذا في المرة التالية التي تكتب فيها كلمة: "إنسانية".

من سيماء الاشمئزاز الذي يعلو وجهه وهو يفحص بعينه هذه العبارات، يمكننا القول بشيء من اليقين إن السيد بلانك فقد المقدره على القراءة. لكنّ يظلّ السؤال قائماً: من هو كاتب هذه الأسطر؟

يمدّ السيد بلانك يده نحو الصفحة التالية في الكدسة ويكتشف أنها مخطوط مطبوع أو ما شابه. الفقرة الأولى هي:

لحظة بدأت بسرد قصتي، صرعوني أرضاً وركلونا رأسي بالأقدام. وحينما عاودت الوقوف لكي أتكلم ثانية، لكمني أحدهم على فمي، ثم لكمني آخر على معدتي. تهاويت أرضاً. تمكنت من النهوض ثانية، ولكن ما إن شرعت بسرد



قصتي للمرة الثالثة، حتى رمانى الكولونيل نحو الحائط فأغمى عليّ.

هناك فقرتان أخريان على الصفحة، ولكن قبل أن يتمكن السيد بلانك من قراءة الفقرة الثانية، برنّ الهاتف. إنه هاتف أسود ذو قرص دوار يعود إلى نهاية الأربعينيات أو الخمسينيات من القرن الماضي، وبما أنه موضوع على منضدة السرير، فإن السيد بلانك يضطر إلى النهوض عن المقعد الجلدي الوثير وجرّ قدميه إلى الطرف المقابل من الحجرة. يرفع السماعه عند الرّثة الرابعة.

مرحباً، يقول السيد بلانك.

سيد بلانك؟ يسأل الصوت على الطرف الآخر.

إذا كان هذا ما تقوله.

أنت واثق من ذلك؟ لا يمكنني القيام بأية مجازفات.

لست واثقاً من شيء. إذا أردت مناداتي بالسيد بلانك فيسرني الإجابة على هذا الاسم. مع من أتكلّم؟

جايمس.

لا أعرف أحداً يدعى جايمس.

جايمس ب. فلود.

أنعش ذاكرتي.

جئت لزيارتك أمس. أمضينا ساعتين معاً.

آه. الشرطيّ.



الشرطي السابق.

صحيح. الشرطي السابق. بم أستطيع خدمتك؟

أريد مقابلتك ثانية.

ألم تكن محادثة واحدة كافية؟

ليس فعلاً. أعرف أنني مجرد شخصية ثانوية في هذه المسألة، ولكن قيل لي إنه يسمح لي مقابلتك مرتين.

أنت تقول لي إنه لا خيار لي.

هذا ما أخشاه. لكننا لسنا مضطرين للتحدث في الغرفة إن لم تكن ترغب في ذلك. يمكننا الخروج والجلوس في الحديقة إن كنت تفضل.

ليس لدي ما أردتديه. إنني أقف هنا مرتدياً المنامة ومنتعلاً الخفين.

انظر في الخزانة. لديك كل الملابس التي تحتاج إليها.

آه. الخزانة. شكراً لك.

أتناولت فطورك سيد بلانك؟

لا أظن ذلك. أمسموح لي بتناول الطعام؟

ثلاث وجبات يومياً. ما زال الوقت مبكراً، لكن من المفترض أن تصل أنا عمّا قريب.

آنا؟ أقلت آنا؟



إنها الشخص المكلفة العناية بك.

حسبتها مينة.

بالكاد.

ربما كانت أنا أخرى.

أشك في ذلك. من بين كل الصالعين بهذه القصة، هي الوحيدة التي تقف كلياً إلى جانبك.

والآخرون؟

فلنكتف بالقول إنه ثمة الكثير من الاستياء، ولنتترك المسألة عند هذا الحد.

الكاتب: [رمان الثقافية](#)